

المفردات والتراكيب الدالة على معنى الخضوع وما يشبهه في القرآن الكريم.

د. سعيد بن علي بن محمد العمري

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

binsaed@kfupm.edu.sa

Vocabulary and structures indicating the meaning of
.submission and similar concepts in the Holy Quran

Dr. Saeed bin Ali bin Mohammed Al-Omari

King Fahd University of Petroleum and Minerals

المخلص:

هذا البحث بحث سار على شفا ضيق بين علم اللغة وعلم النفس في القرآن الكريم، بدأ من الألفاظ التي تدل بدلالة ما على الخضوع والانكسار، وسرّب البحث وراء تلك المعاني الرهيفة يتطلبها، فكان الخضوع والخشوع والإشفاق والخوف والانقياد، ممزوجة بما تدل عليه من المعاني النفسية، وبما ينعكس لذلك كله من ظلال تمتد وراءه. وعمد البحث إلى دراسة ذلك المعنى وما يدل عليه من تراكيب، وما يصحبه من غايات ونهايات، بمنهج وصفي تحليلي استنباطي. ويهدف البحث إلى اختراق التراكيب التي تدل على معنى الخضوع، واستخراج ما ترتبط به أو تدل عليه من حالات نفسية، وبشيء من التعاطي البلاغي الذي يفرض الحديث عنه. ووصل البحث إلى تعدد التراكيب الدالة على الخضوع، وإلى تنوع لغوي ونفسي في تلك التراكيب.

كلمات مفتاحية: دلالات الألفاظ-معاني الخضوع-مرادفات الخضوع-اللغة وعلم النفس.

Summary:

This research walked a narrow line between linguistics and psychology in the Holy Quran. It started with the words that indicate submission and humility, and the study followed those delicate meanings as they required. So, submission, devotion, compassion, fear, and obedience were mixed with the psychological meanings they convey, along with the reflections and implications behind them. The research aimed to study that meaning and what it indicates in terms of structures, along with the accompanying goals and outcomes, using a descriptive, analytical, and inferential approach. The study seeks to explore the structures that signify the meaning of submission and to extract the psychological states associated with or indicated by them. The research found multiple structures that signify submission, revealing linguistic and psychological diversity in those structures .

Keywords: Word meanings, meanings of submission, synonyms of submission, language and psychology

المقدمة:

اختلاط الغايات: رهبة وطمع وحب وخوف وحزن وأمل تتداخل مع بعضها رغبا ورهبا جوع وخوف فكذا الخضوع يجتمع مع الندم ومع الخوف وهكذا تتخالط الغايات في النفوس

خلق الله النفوس، وجعلها مزيجا من العواطف والمشاعر، ففيها الخوف الصريح، والخوف الممزوج بأمل، والخوف والأمل والخوف والندم. ويدخل مع الخوف والابتعاد ما يضاده وهو الانجذاب والطمع، وهو ما عبر عنه في القرآن الكريم برهب ورغب. وتعتري النفوس تلك الحالات النفسية، وتختلف بحسب نسب ذلك وطبيعة الناس. وكذلك الخضوع فمناهج خضوع ورغبة وهو الإيمان، وخضوع رهبة وهو الإيمان كذلك، وهما جدارا النفس: الخوف والرجاء، ومنه الخشوع الذي هو خضوع مرتبط بالعبادة، ومنه الخضوع الذي يفضي إلى الطاعة، أو إلى الإذعان، أو يفضي إلى تغيير أو هرب، أو غير ذلك.

وكان من هذا المنطلق سبب وجود هذا البحث، فهو مذاق من علم اللغة وتحليل ذلك لغوياً، وبلاغياً، وربطه بعلم النفس، من خلال بعض الآيات التي اختيرت، واقتصر على عدد محدود من الآيات؛ لئلا يتوسع البحث، ويكفي منه الطريقة. وهذا جانب ثري جداً، بأن يتم تحليل التراكيب القرآنية؛ فإن منها ما له دلالات بعيدة عن الصورة اللفظية للآية. وقد تبنّى لي في ثنايا هذا البحث موضوعات كثيرة من خلال تحليل ما وراء التراكيب، عسى الله أن يعينني على أن أكتب فيها.

ويهدف هذا البحث إلى تحليل التراكيب التي تدل على معاني الخضوع، وتكمن أهميته في كونه مرتبطاً بكتاب الله، ثم إلى تحليل الكلمات المشابهة للفظ الخضوع، ثم إبداء الفروق بين تلك الألفاظ، وتلك التراكيب، دلاليّاً وبلاغياً، ثم ربط ذلك بالتحليل النفسي الذي يثري كثيراً في فهم حالات النفس البشرية.

واعتمد المنهج الوصفي الذي يقوم على وصف الآيات وصفاً دقيقاً، وعلى المنهج التحليلي الذي يصل إلى تفاصيل الآيات، وعلى الاستقرائي الذي يحاول وضع قواعد مشتركة عامة.

وقسمت البحث إلى مقدمة وعرض عمدت فيه إلى تقسيم لوازم الخضوع إلى ثمانية أقسام، وأوردت بعض الشواهد القرآنية في كل قسم. ثم ختمت بخاتمة تضمنتها أهم النتائج.

ولا أعلم أن هناك بحثاً بهذا العنوان ولا في هذا الموضوع. وحدود البحث ترتسم حول التراكيب التي تدل على الخضوع ودراسة معانيها وتحليلها في القرآن الكريم. والله تعالى المحمود على كل شيء، ومنه العون والتوفيق.

١- التبصر والمعرفة:

يأتي الخضوع نتيجة للتبصر بالحقيقة بعد عمى عنها، والمعرفة بها بعد أن لم تكن معلومة، فيرضخ المرء بفطرته السليمة للتسليم بها، ويأوي القلب الطيب والعقل الراشد إليها، بعد أن تتملكه البصيرة، فيسيطر عليه الندم، فيخضع وينخفض من علو المكابرة. قال الله تعالى: **لَوْ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** {الأعراف: ١٤٩}. فتركيب (سقط في أيديهم) كناية لطيفة عن وضوح الحقيقة لهم بعد أن كانوا عنها عمين، كمن يسقط في يده شيء، فيتضح له ويقر في يده، فلا يغوى في رؤيته ولا يلتبس في تعرفه، فكل شيء إنما نلتقطه بأيدينا، وما وقع في أيدينا كنا أبصر به وأقدر على تمييزه، بخلاف ما لا يسقط فيها ويسقط حولنا، فقد لا ننتبه له. ويدعم هذا أنه قال من بعد: **(وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا)**، فكان كالداعم بالمعنى القريب للمعنى ذاته؛ إذ كان مفاد (سقط في أيديهم) أنهم تبين لهم حقيقة ضلالهم وسوء تقديرهم بما لا شك فيه، وهو ذاته معنى **(رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا)**. ثم جاءت نتيجة ذلك الخضوع والانكسار بالتوجه إلى الله، وطلب الغفران، بأن قالوا: **لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا مِنْ سُوءِ فَعْلَانَا، وَيَغْفِرْ لَنَا تِلْكَ الْخَطِيئَةَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا الْخُسْرَانَ الْحَقِيقِي وَهُوَ الْجَنَّةُ. وَكَوْنُهُمْ يَقُولُونَ: (مَنْ الْخَاسِرِينَ) يَعْبُدُ مَا تَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ بَصِيرَةٍ بِخَطْئِهِمْ، وَيَدْعُمُ مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ مِنْ دَلَالَةِ التَّرَكِيبِ عَلَى الْخُضُوعِ الَّذِي أَفْضَى إِلَيْهِ التَّفَكُّرُ وَالتَّدَبُّرُ وَالتَّبَصُّرُ.**

وقد قيل في (سُقط في أيديهم) كلام كثير للزمخشري^١ والفراء^٢ والزجاج^٣ وغيرهم^٤، أشهره أنه لما اشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل كأنهم عضوا أيديهم؛ لأن من شأن من اشتدّ ندمه وحسرتة أن يعضّ يده غما، فتصير يده مسقوطا فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها. وأرى أن هذا تأويل بعيد؛ لأنه لو كان عضًا على يد لصرح القرآن بهذا، كما قال: {وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمُ الْأُنْثَامَ مِنَ الْغَيْظِ} (آل عمران: ١١٩)، لكني لا أراه إلا كما قال القطب: "إنه على تفسير «الزجاج» استعارة تمثيلية، لأنه شبه حال الندم في القلب بحال الشيء في اليد في التحقق والظهور، ثم عبر عنه بالسقوط في اليد"^٥.

وكذلك نجد في قوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة: ٢٥٩) وذلك أنه لما غفل عن حقيقة الحياة، فساءل نفسه: كيف لله أن يحيي هذه القرية الميتة الهلكى بعد موتها؟ فتعود بحياة كاملة بعد أن هلك ما فيها؟! فأماته الله مئة عام في مكانه، ثم أعاد له الحياة وسأله عن لبثته، فقال: يومًا أو مثله، فأخبره الله بالحقيقة، وأنه سلبت منه الحياة مئة عام، وليبين له مزيدًا من الإعجاز أمره بالنظر في طعامه وشرابه وحماره وأنها لم تتغير. فخضع وأقر واعترف وتبصر، ووصل فورًا إلى ما لا مرأى فيه: من أن الله على كل شيء قدير. ويؤكد هذا الخضوع الذي كان بعد التبين والتبصر أن طبيعة القصة القرآنية تدل على أنه لم يكن متكبرًا ولا كافرًا، وإنما أراد أن يعرف الكيفية؛ ليتوثق قلبه منها، ويدل على ذلك طبيعة السؤال، وتواضع حاله من دابته التي يركبها، وأنه مسافر لبعض حاجاته، يحمل معه مؤننته، وطبيعة رده بعد أن تبين له الحق. ويؤكد هذا أن مجمل كتب التفسير تذكر أنه عزيز عليه السلام.^٦

ومن ذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (فصلت: ٥٣)، فالله -جل وعز- يقول: سيظهر الآيات التي تدل على أنه الفرد الصمد، وأنه الخالق المسير للدنيا وما فيها من خلائق، حتى يكون التبين الذي به يخضع الناس لجبروته ويؤمنون به، فيكون منهم له الخضوع التام والقبول والاستسلام والرضا، ثم العبادة. وخاتمة أن يريهم الله آياته التبيين، أي: حتى يظهر لهم ظهورًا كاملاً، لا لبس فيه. ويلزم من ذلك التبين أن يستبصروا ويعرفوا فيؤمنوا ويصدقوا بما تجلى لهم من غير ريبة ولا شك ولا معاماة، من خلال الآيات البيّنات التي تتدفق تبيينًا وتبصرة وأدلة على وجود موجدّها.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة سليمان -عليه السلام: {فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} (سبأ: ١٤) وذلك أن الجن علا بهم الغرور لقوتهم وسطوتهم وما مكنوا منه من أعمال خارقة، من سباحة في أعماق المحيطات المظلمة، وطيّران في آفاق السماء المنجّمة، والنحت والحفر والبناء والتشييد، وزاد بهم الطغيان فظنوا أنهم يعلمون الغيب، وكان سليمان -عليه السلام- قد مات منذ عام، فأكلت الأرضة منسأته التي اتكا عليها، فخرّ ساقطًا، فتبين للجن أنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في المشقة والعمل هيبة منه، فلم يكن لهم إلا أنهم تبينوا أنهم ليسوا كما ظنوا. وكان في هذا التركيب من الدلالة على الخضوع والانكسار والتفاجؤ وانكشاف الحقيقة المؤلمة التي ظهرت نتيجة المعرفة بما كانوا يجهلون من شؤون أنفسهم.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} (الأعراف: ١٢٠)، فالسحرة حينما انتفقوا مع فرعون على أن يجعل لهم أجورًا وأجعلاً حال فوزهم في اللقاء المفصلي الكبير، الذي يهزم به موسى، وينهي الفتنة التي أحدثها في مصر، من وجهة نظر فرعون، وهو اللقاء الذي جمع له الناس وأقيم في يوم الزينة العظيم، بينهم وبين موسى -عليه السلام-، ولا شك أنهم كانوا ضامنين لأنفسهم التفوق، وأنهم قد تهيؤوا للقاء بقوة، غير أنهم بعد أن ألقوا ما لديهم من سحر عظيم أوحى الله لموسى -عليه السلام- بأن يلقي عصاه، فاستحالت العصا حية تسعى، والنقمت كل ما صنعه السحرة، وختمت الجولة بالنقاف ما يأفكون،

فعلم السحرة أن ذلك ليس بمثل سحرهم، وإنما آية من آيات الله تدل على الإله المتفرد، فخضعوا الخضوع المباشر، وخروا من فورهم ساجدين. وكان هذا الخضوع بعد أن عرفوا الحق، واكتشفوا الصواب، ولم يعودوا يأبهون بمن جعل لهم العطايا والهدايا إن هم غلبوا، بل كان ما رأيته أعينهم واستيقنته قلوبهم كفيلاً بأن يتغير إيمانهم تماماً، وبدرجة من اليقين، جعلتهم يتحدثون فرعون، بأنهم لا يأبهون به، وليصنع بهم ما يشاء، فما وجدوه أعظم من حياة أو موت. وكان في هذا التركيب ما يدل على خضوع العبادة، يدعم ذلك كله بناء الفعل للمجهول (ألقي) فهو أمر عظيم يجعل السامع يفكر في الفاعل، وفي دلالة الفعل (ألقي) بما يفيد بحالة انهيار لقواهم وخور مفاجئ جعلهم يجثمون على ركبهم ساجدين للواحد الأحد.

٢- الاستسلام والطاعة والإذعان:

ومما يدل على الخضوع ما كان بلفظ الاستسلام والطاعة والإذعان وما في معانيها. ومعنى الاستسلام: التسليم وعدم المقاومة أو المرادة، واشتقاقه من السلام ضد الحرب والمواجهة، وهو أكثر أنواع ما يدل على الخضوع في القرآن الكريم، وهو التصرف الأول: التوقف والقبول بالمبدأ. ثم تكون المرحلة الثانية، وهي مرحلة الطاعة التي تأتي تبعاً للاستسلام وتلقائية معه أو بعقبه. ثم يكون الإذعان إذا لم تكن الطاعة تلقائية، بل هم مدفوعون إلى الطاعة مضطرون إليها مسرعون، وهم ذليلون لأمر ما قد يكون من داخل النفس، أو من خارجها. قال الجوهرى عن الإذعان: "أذعن له: خضع وذل" ^٧، وقال ابن دريد: "أذعن الرجل يذعن إذعانا فهو مذعن: إذا انقاد قسراً." ^٨ فهو خضوع فيه رضوخ بذل وقهر.

فمن ذلك قوله تعالى: {لَيْلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ١١٢) وإسلام الوجه لله فيه كل معنى الخضوع والتسليم والرضا، ولا يمكن أن يسلم الوجه لله - والمقصود الروح والجسد - ولا يصحب ذلك الاستسلام رضوخاً لأوامر الله، وقبول لما يكتبه على المرء، وتحرير النفس من أهوائها ومن وساوس الشيطان، فالاستسلام لله رضوخ كامل وقبول ورضا. ومثله: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ} قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقرة: ١٣١) فالإسلام هنا: الرضوخ والرضا والطاعة والتسليم. ومثله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} (آل عمران: ٨٣)، فالآية تتساءل باستغراب كاستغراب البشر: هل يريدون أن لا يعبدوا الله ويسلموا له وله رضخ بالاستسلام والطاعة كل مخلوق برضى أو بغير رضى!.

ومثله قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ} (الصافات: ١٠٣)، فإن ما تعرض له إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من أمر الرؤيا العصبية التي رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل - عليهما السلام -، ورؤيا الأنبياء حق لا ضغث فيها، فأخبر الأب ابنه بالرؤيا، وهو في حالة من الذهول والإشفاق، فقواه جواب الابن بأن افعل يا أبتاه ما تؤمر به، ثم لما أسلما للأمر وشرعا في هيئة الذبح، واتخذوا وضعه، واعتدوا له عدته، فأعتقهما الله - وله الحمد -، واجتازا بإيمانهما هذا الابتلاء العظيم. وإيم الله لقد بلغ الاثنان من الخضوع مبلغاً قل نظيره في الحياة، فنقل لفظ (أسلم) الخضوع التام لأب يرضى أن يفترق آلام ابنه، بلة أن يذبحه بيده، ولابن يعلم أن الله أحق بأن يخضع له، وأن تتلقى أوامره بالقبول والتسليم.

ويدخل ضمن هذه المعاني الخضوع الذي يفرض على الطاعة، وهي مرحلة تالية للاستسلام. وآياته كثيرة ربما تتميز بفعل (أطعنا) و(سمعنا) ومشتقاتهما وأفعال الاستجابة والإيمان والتصديق، فمن ذلك قوله تعالى: {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة: ٢٨٥)، فالسمع والطاعة رضوخ مطلق للحي القيوم. وليس يقصد بالسمع أولية السمع، وهو عمل الأذن، بل يقصد به ما يتبع تلك العملية من الاستجابة لما يسمع. ومثله قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} رَبَّنَا (آل عمران: ١٩٣) فالإيمان خضوع كامل متكامل لله، وهو الغاية القصوى للاستجابة لله. ومثلها قوله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (النور: ٥١) فالمؤمنون من دون سائر الناس هم الذين يقولون سمعنا وأطعنا خضوعاً لله واستجابة وامتنالاً لله ولأوامره، إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم.

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} (آل عمران: ٧)، فالراسخون في العلم والإيمان خاضعون لما جاء من عند الله إلى درجة الإيمان والتصديق المطلق. ظاهر ذلك الإيمان في الإشارة إلى المذكور بالضمير (به)؛ لحضور القرآن في أفئدتهم، فيكفي الضمير إشارة إليه، وفي قولهم (ربنا) فأضافوا إضافة تشرف وتلذذ بخضوعهم لله الواحد القهار. ومن أنواع الخضوع الناتج عن الإذعان وتسليم الأمر بما يشبه سلب القوى والإرادة ما وصفه الله تعالى يوم القيامة وجميع الخلائق في مكان واحد، فلا شيء إلا انتظار ما يحكم به جبار السماوات والأرض في يوم يجعل الولدان شيباً، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتعتري الناس ما يشبه حالة السكر، فلا تركيز ولا تماسك ولا ثبات ولا أمن في ذلك اليوم إلا من آمنه الله بإيمانه من الفرع الأكبر، فيخضع كل الخلق خضوع الاستسلام والإذعان، فلا مهرب ولا مرجع ولا ناصر، ويحجمون عن الكلام فلا تسمع إلا همساً، فيقول- سبحانه وتعالى-: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} (طه: ١٠٨)، فهو خشوع نشأ من خضوع الذلة والذعروانقطاع الحيلة واستحالة المهرب. وما أرحم الله حينما قال (للرحمن)، فهو القوي الجبار شديد العقاب، ومع ذلك قال: الرحمن.

والخشوع نوع من الخضوع، إلا أن صاحبه يرى أن المخضوع له فوقه منزلة، مع خوف منه، وطأطأة للرأس^٩، في حين أن الخضوع لا يلزم فيه ذلك. قال أبو هلال: ..الخُشُوعُ عَلَى مَا قِيلَ فَعَلَ يَرَى فَاعِلَهُ أَنْ مَنْ يَخْضَعُ لَهُ فَوْقَهُ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْهُ والخشوع في الكلام خاصّة، والشاهد قوله تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن). وقيل هما من أفعال القلوب وقال ابن دريد يقال: خضع الرجل للمرأة وأخضع: إذا ألان كلامه لها. قال: والخضاضع المطأطء رأسه وعنقه، وفي التنزيل (فطلت أعناقهم لها خاضعين). وعند بعضهم أن الخُشُوعَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ خَوْفِ الْخَاشِعِ الْمَخْشُوعَ لَهُ وَلَا يَكُونُ تَكْلِفاً وَلِهَذَا يُضَافُ إِلَى الْقَلْبِ فَيَقَالُ: خَشَعَ قَلْبُهُ..^{١٠}

ومثل ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (الأنفال: ٢)، وهذا نوع من الخضوع المفضي إلى الإذعان والانصياع لله تعالى. ومن لوازم ذلك الخضوع أنه أحدث في قلوبهم خوفاً وإشفاقاً. ونسب الوجل إلى القلوب لا إليهم؛ لأن القلوب مستقر العواطف والمشاعر والأحاسيس. وقوله: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة: ٢٩). فأمرنا بقتال المعتدين من الكافرين والذين يقفون في وجه الدعوة إلى الله بمكرهم وكيدهم، حتى يخضعوا ويعطوهم الذل والإذعان والرضوخ بدفع الجزية. وقوله: {قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي} إني خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} (طه: ٩٤)، فموسى -عليه السلام- حينما وكل أخاه بخلافته في بني إسرائيل، ثم إن بني إسرائيل استصغروه ولم يمتثلوا قومه، فغضب منه موسى وأخذ يجر أخاه بلحيته ورأسه، وأخوه ينادي موسى بعد أن بلغ مبلغاً في الخضوع والإذعان والانسحاب مع أخيه هرباً من ألم ذلك. وقوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} (طه: ١١١) فهذا إذعان فيه معنى أنه خضوع نتج عن قوة ما، وهي هنا قوة القوي، فهو خضوع بذلة وانكسار وانقطاع من كل منعة. ونسب العنت إلى الوجوه؛ لأن الوجه تظهر فيه مشاعر النفوس من خوف وذل وفرح وتعجب. ومثل هذا قوله تعالى: {مُطِيعِينَ مُقْتَبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفَلِدْتُمْ هَؤُلَاءِ} (إبراهيم: ٤٣)، فهو خضوع استسلام وإذعان وذلة، مسرعين مطأطي رؤوسهم لا تغمض عيونهم من هول المقام وشدة الحال. ومثله قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} (البقرة: ١٣٨)، وقوله: {وَوَخَّرَ رَاكِعًا وَأَنَابَ} (ص: ١٤)، فهذا كله من خضوع الطاعة.

٣- الانقياد:

ومما يفضي إليه الخضوع أو ينشأ عنه الانقياد، وهو المطاوعة والاسترسال في المتابعة وتلبية النداء، والاستجابة بتلقائية للطلب، مأخوذ من انقياد الدابة بسلاسة في يد من يقتادها. فمن ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَدْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات: ١٠٢)،

وقد تقدم معنا الحديث عن هذه الآية، وكلها إيمان أفضى إلى خضوع وقبول ورضا واحتساب بما فرض الله، وانقاد إسماعيل -عليه السلام- لأمر الله بأن يذبحه أبوه، ولم يتلق ذلك ويسكت بل دعم أباه، إذ قال لأبيه: يا أبت أفل ما تؤمر، وزاد يطمئن أباه: ستجدي إن شاء الله من الصابرين، وفي لفظ (ستجدي) ما فيه من البر، فهم الأب دائماً أن يجد ابنه حيثما يريد، ولم يقل: سأصبر أو سأكون من الصابرين، بل قال: ستجدي، وكأن جل بحث الأب عن أين يجد ابنه من الدين والطاعة والقيم والفضائل؟.

ومنه قوله تعالى: {يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ۖ وَأَلَّا لَهُ الْحَدِيدُ} (سبأ: ١٠)، فكل ذلك جعله الله تعالى لداود -عليه السلام- ما لم يجعله لغيره ولغير ابنه من الأنبياء -عليهم الصلوات والسلام- فجعل الجبال سامعة لأمره مستجيبة لطلبه، منقادة له والطير منقادة له، وجعل الحديد لدناً في يده يشكله كيفما يشاء. وبهذا فرض الله تعالى عليها جميعاً خضوعاً تنقاد به لداود يصنع بها ما يشاء. ومثل ذلك ما جعله الله منقاداً بيد سليمان -عليه السلام- من الريح والجن والإنس والطير، فقال: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (النمل: ١٧)، وقال: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ۖ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} (سبأ: ١٢)، وقال: {فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} (ص: ٣٦). وكل ذلك يشبه أن يتسلم ما يقتادهم به، فيستسلمون وراءه بانسيابية وخضوع.

ومن ذلك ما ملك الله الإنسان من أمر الأنعام، وسخرها له وجعلها منقادة بيده، يعلو بها ويسفل، ويركب عليها ويحمل عليها أثقاله، وله منها مشرب ومأكل، ومن جلودها ما عونه ومتاعه، ومن أوبارها وأصوافها شعاره ودثاره، وبيته وظلاله، فقال: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} (يس: ٧٢)، فهذا التذليل نزع لصعوبتها، وتدجين لنفورها، وإخضاع لها، بأن جعلت منقادة لا تتأبى عليه، ولا تمتنع عن نفعه.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} (يوسف: ٢٤)، فها هنا لم تتمالك امرأة العزيز نفسها، وخارت قواها واضمحلت حياؤها وشرفها واحتشامها أمام جمال يوسف -عليه السلام-، ولم يكن منها إلا أن عبرت بتركيب يدل على هبتها نفسها له، فهي منقادة خاضعة له، يفعل بها ما يشاء، وكأنها جسد بلا روح، لا تلوي على شيء، تلاشت عزة العزيزة، وأبهة الملكة.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (فصلت: ١١)، فالله تعالى يخبر عن السماوات والأرض أنه دعاها للادعان والاستجابة له، استجابة المخلوق للخالق، فقالتا بادئتين بأمره، فقالتا: أتينا طائعين، إقراراً منهما بالاستجابة المطلقة لأمره جل وعز. ولما هما فيه من منزلة المخلوق تكلمتا، وقال الله تعالى عنهما: (طائعين) فأنزلهما منزلة من يعقل، مع أنهما جمادان، وإن كان هذا في أنظارنا وأحكامنا على الأقل. وإلا فإنهما تكلمتا في غير هذا الموضع، واعتذرتا عن حمل الأمانة التي حملها الإنسان بظلمه وجهله. وفي تركيب (أتينا طائعين) من الانقياد وحسن الاستجابة والسلاسة في تنفيذ ما أمرتا به الشيء الكبير.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} (البقرة: ١٠٢)، فالله تعالى أخبر نبيه أنه لن يدرك رضا اليهود والنصارى حتى ينسلخ من دينه ومما أرسله الله به، ويتبع دينهم وما هم عليه، وحينها فسترضى الطائفتان عنه؛ لأنه خرج من دائرة الحق الذي بعث به، واتبع دينهم الباطل المحرف والمغير، وحينها يزول من قلوبهم ما اجتمع من حقد وغل؛ ويرضون عنه؛ لأنه لم يعد له فضل ولا علو عليهم. فحينما يكون متبعاً لهم منقاداً بأيديهم، خاضعاً لرغبتهم، فسيرضون عنه.

٤- الاعتراف:

ومن أنواع الخضوع الذي يفضي إلى الاعتراف ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة العزيز بعد أن دار الزمان، وظل يوسف في السجن بسببها بضع سنين، ولما أن اذكر صاحبه ما كلفه يوسف به من أن يذكره عند ربه، فأخرج من السجن، وجرت المقابلة لمعرفة الحق، فحصلت مراجعة للنفس، ووقعت امرأة العزيز في انكسار نفسي وتأنيب روحي أفضيا بها إلى خضوع أدى إلى أن اعترفت بأنها هي التي اعتدت عليه وظلمته، وذلك في قوله تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَهُ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} (يوسف: ٥١)، وحملها ذلك الخضوع إلى الاعتراف بأمرين، لا بأمر واحد: أنها هي التي دعت له لنفسها، وأن يوسف من الصادقين وأنها كاذبة في كل ما ادعت به عليه، فلم يكن له أن يكذب، حتى يوجب له ذلك أن يخرج من دائرة أهل الصدق الملازمين له المتطبعين والمتخلقين به.

ومن ذلك ما جرى لفرعون وقد زال عنه طغيانه، وتولى عنه جوره، وانسلت عنه جبروته، وأضحى بين لجج البحر وأمواجه وأهواله، ووصل إلى الخضوع التام الذي جرده من فرعونيته التي غدت مثلاً وآية لكل ملك عاتٍ متجبر، فكانت تلك الحالة وهو يصارع الموت ويعافك الهلاك، وكانت تلك اللحظات كفيلة بالاعتراف الذي أسلمه إليه الخضوع والهوان، فقال: آمنت أني لست بإله، وأن الإله الحق الأوحد هو الذي دعتني إليه بنو إسرائيل. قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (يونس: ٩٠)

٥-الهروب

ومن أنواع الخضوع الذي ينجو صاحبه بنفسه من مكان الفعل الخضوع المفضي إلى الهرب والمغادرة، فمن ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُبُورَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الأَنْفَال: ٤٨)، وذلك أن الشيطان لما حرض المشركين وجاءهم معاضداً على هيئة رجل من بني كنانة اسمه سراقه بن مالك ومعه الشياطين في صورة رجال من بني مدلج، يعد قريش بالنصر والمناصرة لهم، فنزل جبريل -عليه السلام- بأمر من الله لتأييد النبي -صلى الله عليه وسلم- والذين آمنوا معه، فلما رآه الشيطان نزع يده من يد أحد المشركين، فقال له القرشي: مالك يا سراقه؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب. فأخزاه الله لما رأى جنود الله، وخضع وذل واضطرب، ثم هرب من اللقاء. وهذا نوع من الخضوع النفسي الذي يفضي بصاحبه إلى التولي والفرار. ١١

ومثله قوله تعالى: {فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ} (البقرة: ٢٤٦)، إذ يخبر الله تعالى عن قوم من بني إسرائيل أنهم زهت بهم أنفسهم، فسألوا نبيهم أن يفرض الله عليهم القتال ويكتب عليهم الجهاد، ليختبر إيمانهم، ويمتحن صبرهم، ويبتلي صدقهم، فطلب نبيهم من الله أن يكتب عليهم القتال، فلما كتبه الله عليهم دخلوا في حالة من حالات الخضوع النفسي، وجبنوا عن الثبات، ولم يستطيعوا الاستمرار ليخوضوا التجربة، فهربوا وتولوا ونكصوا على أعقابهم. وكان ما وقعوا فيه خضوعاً نفسياً وهلعاً روحياً، لم يمكنهم معه البقاء، بل ولوا الأدبار لا يلوون على شيء.

ومثله قوله تعالى: {فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ} (الذاريات: ٥٠)، فهذا الخضوع الذي يكتسبه الإنسان من الإيمان، وهو خضوع مفضي إلى الهرب وترك الحالة التي كان عليها، لكنه هروب من نوع آخر، إنه هروب التوبة، وترك الحالة التي يثبت فيها الإنسان الشيطان والنفس الأمارة بالسوء ونداءات الشهوات، فيهرب من ذلك كله إلى الله الواحد القهار. ومثله قوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الصافات: ٩٩)، فهو خضوع أفضى إلى الهرب والنجاء، فهرب من مجمع الظالمين لأنفسهم إلى الله تعالى؛ ولذلك يعد هذا من التراكيب التي تدل على خضوع المؤمن لربه، والهرب إليه. وهو كقوله تعالى: {قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ} (طه: ٨٤)، فهو كما يقال اليوم هروب إلى الأمام، إلى الله.

٦-التوكل:

ومن أنواع الخضوع خضوع التوكل، التوكل على الحي الذي لا يموت، { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (الطلاق: ٣) وذلك كقوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (البقرة: ١٥٦)، فهذا تركيب يدل على الخضوع لله تعالى، فهم متوكلون ومعتمدون عليه، قد برئوا من كل حول وطول، وتوكلوا على القوي المتين المانع، فهو وكيلهم والقائم عنهم والمتصرف لهم، بما علم من الغيب، وبما هو كامل فيه من صفات الرحمة والحنو والربوبية.

ومثلها قوله تعالى: {وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (غافر: ٤٤)، فإسلام الأمر كله وتفويض كل شيء إلى الله تعالى ليتولاه هو خضوع توكل تام على من بيده مقاليد كل شيء. قال الطبري: "أي: أتوكل عليه وأسلم أمري إليه. وقيل: هذا يدل على أنهم أرادوا قتله. وقال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى. والأظهر أنه مؤمن آل فرعون" ١٢.

ومثله قوله تعالى في قصة يعقوب - عليه السلام - {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (يوسف: ٨٦)، فقد بلغ الحزن بيعقوب - عليه السلام - على فقد ابنه يوسف - عليه السلام - مبلغاً عظيماً، فقد تأمر عليه أبنائه فمكروا بيوسف الابن الذي يحبه أبوه كثيراً، فزعموا أن الذئب أكله بعد أن تحالوا عليه ليأذن لهم في أن يصطحبوه معهم، ثم ألقوه في البئر، وكلما حدث نفسه أو حدثهم عنه سفهوه وأغلظوا له القول، وكأنهم قالوا له فيما قالوا: لا تنفأ تذكر يوسف وتشكو، فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، وليس إلى أحد. فقد نتج عن ذلك كله خضوع توكل وتسليم لجميع أمره حزناً وغماً وهملاً وأملاً إلى الله تعالى، الذي يعلم منه ما لا يعلم غيره، من الرحمة والسمع والبصر والخبر بكل ذي حاجة.

والحزن الشديد والدمع الصبيب لا يسمى جزعاً ولا سخطاً، طالما لم يصحبه الصياح، والعيول، واللولولة، ولطم الخدود، وشق الجيوب، والكلام بما لا يرضي الله تعالى. والحزن ليس محظوراً، وإنما المحذور الكلام الذي يسخط الله تعالى، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا " ١٣.

٧-الانتهاء:

وقد يكون الخضوع نتيجة العجز والإحجام والانهاء، فلا يملك الخاضع شيئاً البتة، ومن الآيات التي ورد فيها ذلك النوع قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} (القلم: ٤٢). فقد بلغ المنافقون يوم القيامة من خضوع الضعف والعجز والانهاء والتلاشي مبلغاً عظيماً، فهم يدعون للسجود لله فلا يملكون القوة على ذلك، ولو ملكوا القوة لسجدوا. قال الطبري: "إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: إن لنا رباً كنا نعبد في الدنيا ولم نره. فيقال: وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: إنه لا شبيه له. فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى، فيخرون له سجداً، وتبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر (قرونها)، فينظرون إلى الله تعالى، فيريدون السجود فلا يستطيعون. فذلك قوله تعالى: { يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ } فيقول الله تعالى: يا عبادي ارفعوا رؤوسكم، فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار " ١٤.

ومثله قوله تعالى: {وَأُصْبِحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص: ١٠) فهذا فؤاد الأم وقد سلب منها رضيعها، قد أصبح فارغاً من الصبر وفارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، فقد كادت تهلك جزعاً على فراقه، ولا شك أنها قد كادت تجن، وتصرخ بما في قلبها بأنه ابنها ذاك الذي في بيت فرعون وتفضح الأمر؛ ولذلك قال الله تعالى: {إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا}، فستر الله لها وربطه على قلبها هو الذي منع من وقوع ما كان يُحذر. ف وقعت في خضوع كادت يفضي بها إلى ما يشبه العجز والاستسلام والاعتراف بما كوى قلبها وحرق فؤادها فيذبحه فرعون، إلا أن الله تعالى لطف فربط على قلبها، حتى رده الله لها، ومن الله تعالى برده لها فقال: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ} (طه: ٤٠).

ومن ذلك قوله تعالى: {قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا {الأعراف: ١٤٣}. السماوات والأرض والجبال خلق من خلق الله يحصل لها ومنها يعلم الله ما يحصل للمخلوقين، وقد تقدم الحديث عن {أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، والجبال أوبت مع داود، وربما تصدعت من خشية الله، وللطير منطق، والنمل يتكلم، وكلها تسبح بحمد الله؛ ولذلك في قصة موسى عليه السلام، حينما تجلى الله - عز وجل - للجبل جعله دكًّا، فما حصل للجبل وهو جماد هو خضوع أقصى به إلى الاندثار والانتثار والتلاشي، فهو خضوع النهاية المفضي إلى العدم والفناء.

ومثله قول السحرة حينما تجلت لهم الحقيقة وانجلت عنهم سحائب الكفر، وعرفوا أنه لا إله إلا الله، سقطوا وخرت قواهم، وانكبوا ساجدين للحق الجبار، وخضعوا لله خضوعًا أوردتهم موردًا عظيمًا، بأن استرخصوا سفك دمائهم قربانًا للعظيم المتكبر، ولم يعودوا يبالون بفرعون وزبانيته وعذابه، فقالوا له: اقض ما أنت قاض، وعبر بالفعل (اقض) ولم يقولوا: اعمل ما تشاء، لأهمية ما سيفعله، وكونه أمرًا فارقًا بين حياة وموت، فليس مجرد عمل يعمل فرعون، بل هو قضاء، فقالوا: {فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} (طه: ٧٢)، فهو خضوع انتهاء الحياة والموت والتلاشي والفناء والانعدام الدنيوي، والانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ولنا أن نتخيل أي إيمان خالط قلوبهم ومازج أرواحهم، جعلهم يزهقون أنفسهم في طغيان فرعون !.

ومثله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {البقرة: ٢٥٨}. وبُهِتَ الخصم: ومعنى بهت الخصم: استولت عليه الحجة. وفي الآية: { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } تأويله: انقطع وسكت متحيرًا عنها^{١٥}. فيكون هذا من خضوع الانتهاء والعِي والخرس.

٨-التغير:

ومن أنواع الخضوع ما يرتبط بالتغير، فهو خضوع يفضي بإحداث عوامل ومؤثرات كفيلة بأن يتغير الخاضع من حال إلى حال، فمن ذلك قوله تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} (الأنفال: ٦)، والآية نزلت في أهل بدر، فإن جمعًا ممن خرجوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخذوا يجادلون الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنهم لم يخرجوا إلا ليغتنموا القافلة، لا ليلقوا قريش وجيشها، ولم يجهزوا أنفسهم لحرب، فذكر الله تعالى ذلك، وقال: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}، فالذي يساق إلى الموت هو في خضوع واقتياد ودفع إلى الفناء، يسبب له تغيرًا في المزاج والحالة والنفس والعقل، حيث أفادت علة هذه المجادلة، لأن أشد حال من يُساق إلى الموت أن يكون ناظرًا إليه، وعالمًا به، فشبهه حالهم في فرط هذا الفزع والرعب، بحال من يُساق صاغراً إلى الموت المحقق، وهو مُشاهد لأسبابه، ناظر إليه لا يشك فيه؛ فإن أمرهم بقتال العدو الكثير العدد، وهم في قلة، إرجاء بهم إلى الموت المحقق^{١٦}.

ومن ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ} (الملك: ٢٧). ومعنى سيئت: قبحت وبسرت واسودت من وقوع ما عاشوا وهم ينكرونه، ومقابلتهم ما كانوا يكذبون به، وليس لهم حيلة، ولا يستطيعون دفعًا عن أنفسهم. والسوء اسم جامع للآفات والداء، ومعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والفترة وكلحوا، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل^{١٧}، وحاق بهم خضوع شديد أدى إلى تغير في ألوانهم ووجوههم ونفوسهم، فقد ذهب نضارة النعيم الذي كانوا فيه، وتغير حسنهم وانقلبت الوضاعة إلى سواد وغبرة وفترة، والبهجة والغرور إلى كآبة وذ هول ودعش.

ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الجاهلية حينما يبشر أحدهم بأن امرأته وضعت بنتًا، فإن التلهف والتشوق يتغير ويتبدد بعد صوت البشارة، ويتحول سريعًا إلى حزن وغم وفتمة وظلام، فيتند ويتأقل من أسى ما بشر به، وتخضع نفسه خضوع المكلوم، ويجزع جزع الموتور، ويتلبسه الذل والانكسار واليأس، ويبدأ يشرع في خطف تلك الهبة التي يومًا ما قد ترجل شعره،

وتحنو عليه، وتأخذ بيده في ضعفه من دون سائر ولده، وليس لها عنده موضع التقبيل والاحتضان إلا الوأد ودمدمة التراب على جسدها الصغير. وقد وعد الله بأن يسأل تلك الصغيرة التي لم تُمهّل حتى تكتسي أو ترضع من لبن أمها، ودست في تراب الصحاري تربوها السوافي، بقوله: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)} (التكوير: ٨-٩) يقول الله تبارك وتعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} (٥٨).

ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الأعراف: ١٥٢)، فاليهود وقد تركوا موسى وما جاء به من الدعوة إلى الله، حتى إذا ذهب لميقات ربه عمدوا إلى أن صنعوا لهم إلهًا عجلاً، فخلفوا بينهم ببئس الخلوقة، فتوعدهم الله تعالى بأن يحل عليهم غضباً يورثهم ذلاً وخضوعاً وهواناً ورخصاً، وبتغيير لأحوالهم، من عزٍّ إلى ذلٍّ، ومن كثرة إلى قلة ومن مباركة إلى محق، ومن رضا إلى لعن، فالتغيير الذي توعدهم الله به من باب الإخضاع الذي يفضي إلى قلب كل شيء عليهم.^{١٨}

ومن ذلك قوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} (الأنعام: ١٢٤). الصغار: هو صاغر بين الصَّغَر والصَّغَار، وقد صَغِر وصَغُر بالكسر والضم. وقم صاغراً وغير صاغر، وقم من غير صغرك وهو الرضا بالضم. وتساغرت إليه نفسه: صارت صغيرة الشأن ذلاً ومهانة. وصَغُرَ في عيون الناس. وأصغر فعله، واستصغره، وهو صغير القدر، وصغير في العلم.^{١٩} واشتقاقه من الصَّغَر، أي: جعل الشيء صغيراً على سبيل التحقير. والمقصود أنهم سيخضعون ويدلون نفسياً بما قدمته أيديهم، ومع أنهم كانوا في الحياة الدنيا في زهو وغرور ونعمة كانوا فيها فاكهين، مع ما في نفوسهم من كبر ومكابرة وكفران وظلم للضعفاء، إلا أنهم يوم القيامة في حال غير الحال، فبعد أن كانوا يوصفون بأنهم الكبراء، إلا أن هذا سيتغير يوم القيامة، فسيبدل الله بكبرهم وعزتهم صغراً ومذلة. خاتمة:

تقدم معنا في هذا البحث تصور عن التراكيب التي تدل على الخضوع، وتبين أن الخضوع هبوط وانكسار ورضوخ، وأنه ربما يصحبه أمر آخر، فربما أفضى إلى التنبص والمعرفة، وربما أفضى ذلك الخضوع إلى استسلام أو طاعة أو إذعان، وربما كان ذلك الخضوع مفضياً إلى الانتهاء وكمال الهزيمة والخنوع، وربما أفضى الخضوع إلى اعتراف وخروج من دائرة الإنكار، وربما كان ذلك الخضوع متسبباً في انقياد واسترسال مع من خضع له، أو كان ذلك الخضوع دافعاً إلى التوكل على قوة أخرى، أو أفضى إلى هروب وتولٍّ، أو أفضى ذلك الخضوع إلى تغير وانقلاب من حال إلى حال.

وقد وصل البحث إلى عدد من النتائج، منها:

- ١- النفوس كما تعلق بزهو وغرور وخيلاء وكبر، تتخفّض بخضوع وانكسار وخنوع وخشوع.
- ٢- المشاعر ربما يملأها شعور واحد كالخوف، وربما يخالطه شعور آخر، وهو ما تعبر عنه العربية بدقة، فالخشوع والخضوع متقاربان، إلا أن الخشوع شعوران في لفظ واحد، فهو خضوع و رؤية المخضوع له في مكان عالٍ. والطاعة استسلام، لكن بزيادة الاسترسال والاستجابة لفعل ما يريده المخضوع له.
- ٣- كثير من التراكيب التي جاءت وتدل على الخضوع تصلح لأن تكون أمثالاً، من مثل: {الآن حَصَّصَ الْحَقُّ}، لثبوت أمر ما، و {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} لعدم المبالاة والاكتراث، و {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ} لوصف المواقف بالشدة، و {يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}. إلى غير ذلك.
- ٤- الحاجة إلى الاستفادة من القاموس العربي في علم النفس؛ فإن أغلب مصطلحاته مصطلحات أجنبية، في حين أن المعجم العربي مليء بالألفاظ التي يمكن أن يستفاد منها في وصف الحالات النفسية، فالخضوع معنى والخشوع معنى والخوف معنى والهلع معنى والجزع معنى والسمع معنى والطاعة معنى والانقياد معنى، والحزن معنى، والبُثُّ معنى، والغم معنى، والهَمُّ معنى، وهكذا. وكل أولئك يجب أن يستفاد منها في تأصيل العلوم.

٥- القرآن الكريم مليء بما يمكن أن يؤصل علومًا كاملة، ويغني عن غيره، وتنشأ علوم تنشأ ابتداءً وختماً من القرآن الكريم، فمثلاً تحت عنوان (اللامبالاة) نجد آيات كثيرة تصلح لتأسيس علم كامل تحت هذا العنوان، من مثل آيات: فاقض ما أنت قاض، و: وإذا خاطبهم الجاهلون، و: فلا تأس، و قل هو من عند أنفسكم، و: ما كتبناها عليهم، و: فإن تولوا فإنما عليك البلاغ، و: لكم دينكم ولي دين، و: فأعرض عنهم وعظهم، و: وإذا مروا باللغو....

٦- المعاني قد تعبر عنها الألفاظ المخصوصة، وقد تعبر عنها التراكيب الكاملة، مما يعطي أهمية زائدة للتراكيب، فقد يفضي التركيب إلى معنى آخر.

٧- أحياناً لا يقصد بالتركيب المعاني المجردة لألفاظها مفككة، بل يقصد بها معنى أبعد، ف(كأنما يساقون إلى الموت) ليس المقصود منه الدلالة اللفظية الباردة: (كأنهم يساقون إلى الموت)، و(أصبح فؤاد أم موسى فارغاً)، بل المقصود الحالة النفسية والجسدية للمعنيين.

والله تعالى أجل وأعلم.

المصادر:

أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، ت: عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٩.

تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ت: جماعة، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، (١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ).

تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، ت: عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧.

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، ت: التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر، ١٤٢٢.

تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله القرطبي، ت: البردوني إطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤.

تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري (٥٣٨)، دار الريان للتراث بالقاهرة، ط٣، ١٤٠٧.

جمهرة اللغة، أبو بكر ابن دريد (٣٢١)، ت: بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين الشربيني، مطبعة بولاق، ١٢٨٥، القاهرة.

شرح درة الغواص في أوهام الخواص، الشهاب الخفاجي، ت: فرغلي، دارالجيل، بيروت، ط١، ١٤١٧.

العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: المخزومي والسامرائي، دار ومكتبة الهلال.

غرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، أحمد الشوابكة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣١.

الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ت: سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.

المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن بن سيده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢١.

معاني القرآن، أبو زكريا الفراء (٢٠٧)، ت: النجاتي وجماعة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١.

معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (٣١١)، ت: شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨.

مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي (٦٠٦)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠.

- ^٢ ينظر: معاني القرآن للفراء (٣٩٣/١)
- ^٣ ينظر: معاني القرآن للزجاج (٣٧٨/٢)
- ^٤ ينظر: شرح درة الغواص للشهاب الخفاجي (٤٧٢-٤٧٤)
- ^٥ شرح درة الغواص في أوهام الخواص للشهاب الخفاجي (٤٧٤)، واللسان (سقط)
- ^٦ ينظر: تفسير الطبري (٣٧٢/٢٠)
- ^٧ الصحاح (٢١١٩/٥)
- ^٨ جمهرة اللغة (٦٩٨/٢)
- ^٩ ينظر: العين (١١٢/١)
- ^{١٠} الفروق اللغوية (٢٤٩)
- ^{١١} تفسير القرطبي (٢٦/٨)
- ^{١٢} تفسير الطبري (٣١٨/١٥)
- ^{١٣} غرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن ١٦٢
- ^{١٤} القرطبي (٢٥٠-٢٤٩/١٨)
- ^{١٥} تاج العروس (٤٥٣/٤)
- ^{١٦} السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٥٥٨/١)
- ^{١٧} تفسير الرازي (٥٩٣/٣٠)
- ^{١٨} ينظر: المحكم لابن سيده (٤٨/١٠)
- ^{١٩} أساس البلاغة (٥٤٨/١)